الكستناء

قصة بقلم عادل ابو شنب

– كستناء .. كستناء !

اندفعت اصيح هكذا، وإن كانت الآذان التي حولي بعيدة عن ان تفهم .. ومن بعيد تخيلت المدى متصلاً بالسماء ، تلوح فيه السيقان القصيرة المنتصبة وهي تحمل عناقيد الكستناء كأنها عفاريت مخيلة أخي الصغير، بل وتخيلت الرجال وهم يقطفون حبات الكستناء ، تخيلتهم اشداء كهؤلاء الذين ينسابون أمامي ، في هذا الشارع الواسع ، فيضج بهم الشارع الواسع ..

وشعرت ان الأيدي التي ترتفع ، وان الحناجر التي تهتف ، قد إعتراها شيء من الفتور ، وان كانت الوجوه قد زينتها ملامح الحماسة التي تلتزم الموقف في مثل هذه اللحظات ..

وانحرفت إلى زقاق ضيق .. كان عليّ ان أفعل شيئاً خطراً ما دخل حياتي من قبل ، بل ما تصورت ابداً انني سأحاول انجازه هكذا في لحظات ، لقد قال لي الرجل محمساً :

– ويكفي ان تقذفها في وجوههم !

وقدم إليّ « برتقالة » من الحديد .. انني احب البرتقال كثيراً .. أكثر من الكستناء !

كانت تقول لي أمي :

– كلْ من هذه الكستناء يا بني .. فلقد احبها ابوك كثيراً.

ولكن يا أمي ، لماذا افعل ..؟ لماذا آكل من هذه الفاكهة القديمة التي تنسحق بسرعة مستسلمة للأضراس ؟ لقد قدم الرجل إلي فاكهة جديدة، أراد بها ان يعيد إلي ما فقدته بتأثير الكستناء المشوية على منقل أبي.. أبي الذي كان يخبىء امكانيته عن رجال الحارة الذين دافعوا ، الذين سقطوا ..

وكان الذين في الشارع قد جفت حناجرهم من الهتاف ، ولكنني لم آبه لذلك ، وما فعلت اكثر من انني صعدت الى السطح المعدّ أترقب ، انتظر ان تمر السانحة ..

ان « البرتقالة » ما تزال في جيبي ..

وبرز من الشارع المقابل حفنة من الرجال الأشداء ايضاً ، وكانت خوذهم تلمع من الوهج ، وخيل إلي ان الحناجر التي تصخب قد بدأت تستعيد قوتها ، ولمحت العيون قد زاد فيها البريق ، وكنت أترقب ، أنتظر ان تمر السانحة ، وان كانت عيناي قد اخذتا تدوران من القلق .

– كلْ ، تناول من هذه الكستناء ، انها فاكهة ابيك المفضلة !

ولقد عذبني كثيراً انها فاكهته المفضلة ، وانه كان يجمعنا حوله ، يمدّ يده الى الطبق المليء .. يأخذ واحدة يمضغها في استطابة ، فنسرع وراءه ، نأخذ كما أخذ ، ونمضغ كما مضغ ، وكنت يا أمي تقولين له :

– المنقل بارد .. والأولاد يحبون الكستناء ساخنة .

فما كان يجيبك ، وإنما كان يدفع الى المنقل حبات جديدة منها:

– كلوا يا أولاد .. إنها لذيذة في الشتاء !

وكان إذا همس الرجال من وراء الباب رددت انت يا أمي ، وما ردّ أبي :

– إنه ليس موجوداً !

وكان أبي يجمع سحنته عند فمه ، لعله يعرف ان القضية خاسرة لأن الرجال ما كانوا ليستطيعوا إلا ان يقيموا المتاريس في الشوارع ، فاذا جاءت الحملة ، قاوموا بقلوبهم ، ولكنهم .. كانوا يخرّون صرعى دائماً ، وكان الدم يتغلغل في التراب .

ما تزال البرتقالة في جيبي ، ولكن الرجال الأشداء قد ابتعدوا ، تلمع خوذ الآخرين من الوهج ، وكان يعوزني بعض التركيز .. لأفعل ، لقد قال لي الرجل : « يكفي ان تقذفها في وجوههم ! » ولكن يا رجل .. أسأفعل حقاً ؟ إن أبي لم يرد أبداً ان أدخل الى الصميم ، كان ينتظرني على الباب ، حتى إذا ما خرجنا والأحجار تتهاوى على رواق المدرسة .. أخذني من يدي :

– الى البيت يا ولد !

وكان الأولاد يسخرون :

– إنه جبان .. لا يخرج في المظاهرات !

ولكم تمنيت ان أخرج ، ان أدفع رغبتي الى حنجرتي كما يدفعون رغباتهم التي لا يفهمونها الى حناجرهم الفتية :

– فليسقط الاستعمار .. فليسقط ..!

ولكنني لم أستطع أبداً ، ذلك لأن أبي لم يرد لي ذلك ،

ولأنه كان يحب ان يحشو معدنا كل مساء بَليل الجناح، بحبات الكستناء المشوية على المنقل المتوهج ، وغير ذلك ، فهو لم يرد ايضاً ان أتعلم شيئاً من صفاقة رفاق المظاهرة .. اولئك الذين لا يستطيعون ان يأكلوا ايام المجاعات خـــبزاً ابيض . . كما نستطيع نحن .

سمعت طلقة، ولم أر آثارها جازماً، وإنما رأيتهم يركضون، وكان ذوو الخوذ اللامعة يهرولون في اثرهم ، وبنادقهم مصوبة الى القفوات المهتزة .. المسرعة من الملع،وسمعت طلقة اخرى، فطلقة ثالثة ، ورأيت صبياً يقع ..

وكانت البرتقالة في جيبي .. وكان الرجل في رأسي. كنت استعيد قوله : « يكفي ان تقذفها في وجوههم ! » ولكن شيئاً كأنه الصدأ ، كان يقتل فيّ التصميم الذي صممته .. لعلي تخيلت الوجوه المكشرة من الألم ، او لعلي تخيلت الوجوه الاخرى التي تقبع خلف الجدران،تهتز كلما لاح في الاسماع صوت طلقة، وما كان يثنيني عن العدول إلا التفكير في الاشيـاء الواقفة ، الجامدة .. التي لا تنحرف عن الخط المستقيم .

انني اكره الخطوط المستقيمة .. اكرهها من كل قلبي !

لقد سرنا معاً يا ابت .. سرنا في طريق مستقيمة ذات يوم، وكنتَ لا تنظر إلا في اتجاه واحد ، تحبّ ان لا يتقول الناس شيئاً ، ولكن الرجلين اللذين قامـا الى بعضهما يتصارعـان قد استثاراني ، وإن كانا قد جمدا على عينيك برهة ، فـــلم تحرك اهدابك للدماء التي سالت من رأس احدهما ، لقـــد حركتُ اهدابي كثيراً يا ابت ، بكيت من اجـله ، ورأيت دموعـاً كثيرة ، تنهمر من عيني امرأة حلوة .. انتصرت بدموعهـــا للمسكين الذي انخذل ، وإن كانت ما عرفت الاسباب. وإن كنتُ ما عرفت الاسباب قط .

وقلت لي :

— يالله يا ولد .

تريد ان نبتعد ، وأخذت يدي ، شددتني ، وأنا انظر الى الآخرين الذين ركضوا يحسمون الخلاف ويسوون الأمر،انظر فقط ، وإن كانت عيناي قد دارتا ، تريدان ان تسألاك :

ترى أما انتصرت بفكرك .. بفكرك فقط لاحدهما ؟

ولكنني لم افعل ، وإنما تصورت المنقل المتوهج الذي تنفجر فيه ، كل حين حبة من حبات الكستناء التي ما احببتها .

وكانت المرأة التي بكت ، قد بلغ بها حماسها في البكاء حداً ، اندفعت معه تقول في وجه احد الرجلين :

— ويلك من ربك !

وكنت قد قلتها في ضمـــيري ، ولكن رجالاً آخرين لم يتحمسوا ، وانما اكتفـوا بشيء من النظرات الناقمة على الوجه المليء بالدماء .

فوجئت بأن رأيت بقعاً من الدم في ارض الشارع ، وكان ذوو الخوذ اللامعة قد اعتصموا وراء الابنية ، يمدّون رؤوسهم في وجل نحو الشبان الذين يمطرون المكان بالأحجار ، ومددت يدي الى جيبي: كانت البرتقالة ما تزال تنتظر لتملأ الفضاء عويلاً.

وسمعت صراخ الشبان، كان احدهم يحاول ان يقتلع احجار الطريق ، ونظرت الى وجهـه ، تفرست في ملامحه التي كانت تتلون ، فأثارني انه يفعل ذلك في تصميم مدهش، انه يحدد موقفه بالنسبة للحادثةالتي صارت ، فلا يقف مكتوف اليدين . لقد كان الاستاذ يقول لنا دائماً :

— ما من حياد يا أولاد !

ولكن ابي كان ينظر فقط ، وما كان وجهه يتلون ابداً .!

واخرجت القنبلة ، احاول ان اقذفها في وجوههم ، وإن كنت قد تخاذلت بعض الشيء: لعلي لا أرضي بذلك الآخرين، ولعلني على خطأ فاحش ، ولكن الذي شجعني هو ارادتي في ان اكون خارج الخط المستقيم، هو ايماني بأن الحياد لحظة واقفة، لحظة الجبناء وحدهم .

كان واجباً يا ابتاه ان تعلن رأيك بصراحة ، ذلك لأن رجال الحارة كانوا — لا شك — يضمرون في قلوبهم حقداً على الآخرين الذين لا يفعلون ، وكانوا دائماً يقولون :

— انكم أشد وطأة علينا من اعدائنا !

ولقد كنتم حقاً اشد عليهم من اعدائهم .

وهنا ، بلغ هتاف الرجال قلبي ، فشعرت بوطأة المبادىء التي احبها .. والقيت القنبلة ، وسمعتهم يصيحون !

دمشق **عادل ابو شنب**

صدر حديثاً **اشياء صغيرة**

بقلم الآنسة سميرة عزام

مجموعة قصص قصيرة ذات نزعة انسانية وتحليلية رفيعة

الثمن ليرة واحدة **دار العلم للملايين**